

مختصر ابن كثير

37 - وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون .

38 - وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون .

39 - والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلهم ومن يشأ الله يجعله على صراط مستقيم .

يقول تعالى : مخبرا عن المشركين أنهم كانوا يقولون لولا نزل عليه آية من ربه أي خارق على مقتضى ما كانوا يريدون ومما يتعنتون كقولهم : { لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا } الآيات { قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون } أي هو تعالى قادر على ذلك ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السالفة كما قال تعالى : { وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا } وقال تعالى : { إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين } وقوله : { وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم } قال مجاهد : أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها . وقال قتادة : الطير أمة والإنس أمة والجن أمة . وقال السدي : { إلا أمم أمثالكم } أي خلق أمثالكم . وقوله : { ما فرطنا في الكتاب من شيء } أي الجميع علمهم عند الله ولا ينسى واحدا من جميعها من رزقه وتدييره سواء كان برياً أو بحرياً كقوله : { وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين } أي مفتح بأسمائها وأعدادها ومطانها وحاصر لحركاتها وسكناتها وقال تعالى : { وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم } وقوله : { ثم إلى ربهم يحشرون } عن ابن عباس قال : حشرها الموت (والقول الثاني) : إن حشرها هو بعثها يوم القيامة لقوله : { وإذا الوحوش حشرت } .

عن أبي ذر قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انتطحت عنزان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتدرون فيم انطحتا ؟ " قالوا : لا ندري قال : " لكن الله يدرى وسيقضي بينهما " قال أبو ذر : ولقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يقلب طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما (رواه ابن جرير وأحمد وعبد الرزاق واللفظ لأحمد) وفي الحديث : " إن الجمعاء لتقتصم من القرناء يوم القيامة " (رواه الإمام أحمد في

المسند) وقال عبد الرزاق عن أبي هريرة في قوله : { إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون } قال : يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول : كوني ترابا فلذلك يقول الكافر : { يا ليتني كنت ترابا } (الحديث روي موقوفا هنا ومرفوعا في حديث الصور) وقوله : { والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات } أي مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم وهو الذي لا يسمع أبكم : وهو الذي لا يتكلم وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه ؟ كقوله : { وتركهم في ظلمات لا يبصرون ... صم بكم عمي فهم لا يرجعون } وكما قال تعالى : { أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله نورا فلا نور } ولهذا قال : { من يشأ الله يضئ النور ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم } أي هو المتصرف في خلقه بما يشاء